من القصر القديم مرورا بالسبخة إلى العرق الكبير

غرداية عروس الصحراء

..... معالم سياحية تبقى مهددة بالزوال .....

قصد تعريف شباب الجزائر بأهم المناطق السياحية و التاريخية التي تزخر بها بلادنا بادرت وزارة الشباب و الرياضة بالتنسيق مع مديريتها بتنظيم رحلة استكشافية شبانية إلى ولاية غرداية التي تزخر بمعالم سياحية و تاريخية، و التي تبقى للأسف حبيسة النسيان بفعل التخريب و الإهمال التي تعانيه.

ربورتاج : كريمة سلامي

الرحلة التي قادتنا إلى غرداية ضمنت أزيد من 45 شاب منخرط في جمعيات مختلفة، على غرار الجمعية التطوعية "تويزة" بالعاصمة التي أصر رئيسها صفيان خوخي أن نكون ضمن القافلة الشبانية المتنقلة إلى غرداية لننقل أهم المعالم السياحية و التاريخية التي تزخر بها الولاية على غرار القصر القديم و بحيرة المالحة المعروفة لدى سكان المنطقة ب " السبخة" و الكنسية، إضافة إلى الرمال الذهبية التي ترسم إبداع الخالق. وجهتنا كانت إلى الملعب الاولمبي 5 جويلية مكان انطلاق جميع القوافل، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا، أين التقينا أعضاء الوفد المرافق لنا إلى غرداية الذي يترأسه عمي محمد الذي يشغل منصب طبيب عام في مستشفى بوفاريك إضافة إلى عمي سمير الشخصية البشوشة التي استطاعت أن تكون محبوبة جميع الشباب، انتظرنا في ذات الملعب إلى غاية إعطاء وزير الشباب و الرياضة محمد تهمي إشارة انطلاق جميع القوافل المتوجه إلى 23 ولاية. توجهنا مباشرة إلى الحافلة أين أمضينا فيها أزيد من 16ساعة للوصول إلى دائرة المنيعة التي تبعد عن عاصمة غرداية ب 270 كلم، قضينا الليلة في بيت الشباب بالمنيعة بعد رحلة شاقة ميزتها الجو البهيج الذي رسمه الشباب المرافق لنا .

المتحف العمومي بالمنيعة يروي حياة إنسان ما قبل التاريخ

كان من الصعب علينا النهوض في الصباح الباكر، بسبب التعب الذي نال منا، إلا انه و بعد إصرار قائد الوفد الشباني عمي محمد أجبرنا على إتباع النظام الخاص المبرمج. و بعد تناولنا فطور الصباح في بيت الشباب قدم لنا قائد الوفد البرنامج الخاص بأسبوع كامل من الرحلة الذي يشمل زيارة العديد من المناطق السياحة المعروفة بالولاية. وجهتنا الأولى كانت مباشرة إلى المتحف العمومي الوطني بالمنيعة الواقع بالقرب من البلدية يحي أولاد عيشة ، المتحف الذي يروي حياة إنسان ما قبل التاريخ من خلال أحجار" الديفوني الفحمي" المتواجد في منطقة " تيميمون" و التي يعود تاريخها إلى الحقب الأول، و أحجار الغابات التي تعود إلى حقبة الإنسان ما قبل التاريخ، إضافة إلى وجود بيض النعام في ذات المتحف و الذي كان يستعمل في تلك الفترة كإناء لحفظ الماء و الزيوت فيها ، في حين قشوره استعملت كحلي، و قد شد انتباهنا خلال تجولنا في المتحف العمومي وجود أحجار جامدة، و أحجار المستنقعات التي تعود إلى العصر الطباشيري و التي يفوق عمرها 120 مليون سنة. وقصد التعرف أكثر على تاريخ هذا المتحف العتيق قمنا بمحاورة قريز نزيهة المشردة السياحية بالمتحف و التي أكدت لنا أن هذا الأخير يحتوي على أثار عديدة تعود إلى ما قبل التاريخ، و يعود فضل تأسيسه إلى "روني لوكلار" من أصل مسيحي الذي تأثر بتاريخ و حضارة بلدية المنيعة، و هن أهم الآثار الموجدة في المتحف صرحت ذات المتحدثة بوجود العديد من الأشياء القديمة التي تعود إلى عصور عابرة من مستحثات بحرية ووردة الرمال ، و العديد من الأدوات التي كان يستخدمها إنسان ما قبل التاريخ من الفخار ، إضافة إلى أنواع الرمال و مجسمات خاصة بالقصر القديم، الزي التقليدي القديم لأهل المنطقة، "الكركوب" الذي يمثل نشاط البكتريا على الحجر . و فيما يخص زائرين كشفت ذات المتحدثة أن للمتحف ميزة كبيرة ،لشيء الذي يجعله مقصد العديد من السياح و الأجانب و حتى سكان المنطقة و حتى أبناء المدارس، إضافة إلى ذلك يلعب ذات المتحف دور في تنظيم أيام دراسية لسكان المنطقة و كما قالت قريز" الأسبوع الماضي فقط قمنا بتنظيم أيام دراسية شملت شعار تاريخ الجزائر عبر العصور بمشاركة أساتذة و مختصين في التاريخ تزامنا مع الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر" .كما أشارت المشرفة عن المتحف أن هذا الأخير يقصده طلاب علم الآثار و التاريخ الذين يستفسرون على نوع الآثار و تاريخ هذه الأحجار .

القصر القديم يتحول من جوهرة معمارية إلى وكر لتعاطي المخدرات

و جهتنا الثانية كانت إلى القصر القديم بالمنيعة المتواجد على بعد 275 كلم جنوب مدينة غرداية.يقع هذا الفضاء العمراني العتيق في مفترق المسالك التجارية القديمة التي كانت تربط بين شمال إفريقيا في فترة العصور الوسطى وإمبراطورية "سونغاي" للساحل الإفريقي . بني فوق تلة بعلو يبلغ 75 مترا .ويحمل هذا القصر الذي يطل على الجهة الشرقية لواحة النخيل بالمنيعة تسمية " تاوريت" التي تعني تلة صغيرة بالأمازيغية. ويشهد هذا القصر القديم الذي بني على نمط معماري كان سائدا منذ قرون على بقايا حضارة مدنية كانت متواجدة بهذه المنطقة. ومع ذلك فإن تاريخ بناء هذا القصر يظل محل جدل بين معلومات متضاربة. عند زيارتنا لهذا القصر العتيق يشد انتباهك هيكله المعماري الذي يشمل برج شكله هرمي يحوي على العديد من السكنات ذات كهوف وأخرى ذات كهوف ضيقة تتميز بنمط معماري بسيط بها "محاريب" و"رفوف "و"فتحات" صغيرة للإضاءة وللتهوية . ويذكر مؤرخون أن هذا القصر العتيق الذي شهد عدة تسميات " القلعة" و"الغولية" قد كان في السابق ملجأ للسكان المحليين ومخبأ لمحاصيلهم الزراعية في الظروف الصعبة. كما يضم هذا الفضاء المعماري العريق مسجدا تمحورت حوله سكنات مشيدة فوق صخرة كلسية وبئرا جماعية ومخازن للمواد الغذائية .

القصر العتيق وحسب اللافتة الموجود في مدخله تم تأسيسه من طرف إحدى فروع قبيلة الزناتة البربرية مابين القرنين التاسع و العاشر ميلادي المرافقين للفرنين الثالث و الرابع للهجري وسمي آنذاك " تاويرت" بمعنى القلعة و قد أشار إلى وجود مثل هذا القصر العلامة ابن خلدون و البكري كما وصفه الرحالة العياشي في رحلته المشهورة " ماء الموائد" في 22 ديسمبر 1662، و قد سكنه بعض التجار من البربر، كما ترددت عليه القبائل العربية من الرحالة. و رغم هذا الأثر العظيم لهذا القصر الذي يضل رمز من رموز البربرين الذي سكنوا المنطقة ، إلا أن الزائر الذي يقصده يشعر بخيبة أمل كبيرة لما آل إليه بسبب وضعيته المتدهورة التي تستدعي تدخل الجهات المعنية لحفظ هذا الإرث الذي يعاني من انعدام فرص تثمينه وحمايته من مختلف أشكال الاعتداءات، بعد أن أصبح بعض شباب المنطقة للأسف يستعملونه كمكان لتعطي مختلف أنواع المخدرات و المشروبات الكحولية . و في ذات الصدد صرح لنا زنقط مدير بيت الشباب المنيعة أن هذا القصر كان يسمى القليعة، وعن دوره في الحقبة الاستعمارية قال زنقط انه كان كمخبئ للمجاهدين إلا انه تم الاستيلاء عليه من طرف فرنسا بعد أن طوقته و جعلته تابع لها واستغلته كمعسكر لها من اجل مراقبة المدينة .من جهته أكد ذات المتحدث أن هذا القصر مهمل إهمال كبير سواء من حيث الترميم الذي لم يستكمل لحد الساعة، كما ناشد مدير بيت الشباب السلطات بإعادة النظر في هذه الجوهرة المعمارية قبل فوات الأوان من خلال تخصيص ميزانية له، وترميمه، ووضع مرشدين و حراس يسهرون على حمايته. تسعى العديد من الجمعيات الفاعلة بالمنطقة إلى إعادة الاعتبار لهذه الجوهرة المعمارية التي من شانها أن تسمح باستغلال الثروات والحرف التقليدية التي تزخر بها منطقة المنيعة وفي مقدمتها نسج الزرابي مما يمكن العديد من الناسجات بتسويق منتوجاتهن ويشجع الشباب للتوجه نحو مناصب الشغل التي تتيحها الخدمات المختلفة المطلوبة أثناء الموسم السياحي.

" السبخة" جبال رملية ذهبية تبرز إبداع الخالق في رسم جمال الطبيعة الصحراوية

وجهتنا الأخرى في اليوم الثاني كانت لبحيرة حاسي القارة المعروف ب " السبخة" منطقة رملية رائعة الجمال ترسم إبداع الخالق في جمال خلقه، فبمجرد نزولنا من الحافلة شد انتباهنا الجبال الذهبية الرملية التي كانت مرسومة بحكم و إتقان كأنها لوحة تربط جمال الرمال الذهبية بزرقة السماء الصافية، درجة الجمال جعلت الكثير منا يتمتعن في تلك الجبال التي تأخذك إلى ابعد الحدود منطقة السبخة الواقعة بدائرة منيعة تتميز بتوهج كثبانها الرملية الناعمة وجمال واحاتها و سبخاتها الزرقاء المالحة التي تستقطب الآلاف من الطيور المهاجرة، ما جعل المنطقة تصنف كفضاء رطب ومحمية وطنية ، كما تحوي المنطقة على غطاء نباتي معتبر رغم ما يطبع مناخها الصحراوي من جفاف وقلة تساقط الأمطار.

البحيرة المائية تحوي أزيد من 3210 طائر

تعد "سبخة المالح" المعروفة بالبحيرة المائية، رواق للطيور المهاجرة بين أوروبا وإفريقيا، إذ تأوي بحسب بيانات علماء الطيور 3210 طائر من عشرين صنفا دوريا، ويوضح "ناصر زيدون" مسئول حماية ثروة الحيوانات والنباتات، أن الأمر يتعلق على نحو خاص بالطيور المائية بينها الكناري الجارف والبط المعنقد والبط الرخامي البري وأنواع أخرى من الطيور المائية على غرار طيور الفلامون الوردي وطيور السيلفان والنهس والأبلق والمالك الحزين والنسر أبيض الذيل، إضافة إلى أصناف نادرة مدرجة على لائحة الطيور المهددة من لدن الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة. كما تحتوي المنيعة على حوضين مائيين أحدهما يحتوي على مياه مالحة وآخر للمياه العذبة على مساحة تفوق 18497 هكتار،

ويزخر الحوضان بثروة من الثديات البرمائيات وأسماك المياه العذبة على غرار سمك "القمبوزيا" ونباتات وأعشاب متوطنة غنية ومتنوعة مثل: الشيح، الفيجل، الحلبة، الجعدة، القرطوفة وغيرها، تستفيد من مياه الأمطار وصعود المياه السطحية ومياه السقي الزائدة.

الكنيسة الكاثوليكية " سان جوزيف " قطب سياحي هام في المنطقة

تركنا ورائنا بحيرة" السبخة" و الجبال الرملية و انتقلنا إلى الكنيسة الكاثوليكية" سان جوزيف" التي تعتبر واحدة من أهم المعالم الأثرية القديمة في مدينة المنيعة .تقع في الشمال الغربي في المنطقة المسماة "حفرة العباس" وقد تأسست في الفترة الاستعمارية سنة 1918م حسب ما صرحه لنا حارس الكنيسة الحاج لحباقي محفص. تعد الكنسية قطبا سياحيا هام خصوصا للسياح الأجانب الوافدين من المنطقة الأوربية المتدينين بالديانة المسيحية لما تعنيه لهم هذه الأخيرة من ضريح أهم القدسيين الذين تواجدوا بالجزائر في الفترة الاستعمارية حيث يحتوى الضريح على قلب ذلك القديس الذي اغتالته قبائل الطوارق بالجنوب وقامت بتقطيع أطرافه وبذلك تم دفن كل عضو من أعضائه في منطقة ولما كان للقديس من حب لمدينة المنيعة فقد تم دفن قلبه بها. كما تحوي المنطقة على كنيسة أخرى توجد بوسط المدينة كانت إبان الحكم الاستعماري تقوم بتدريس الأولاد حيث تقوم تعليمهم اللغة الفرنسية وآدابها كما كانت تقوم تعليم الفتيات الطرز والخياطة وفنون الطبخ وذلك بواسطة الأخوات الذين مازالوا يعيشون في المنطقة إلى يومنا هذا حيث ما زلوا يزاولون خدماتهم تلك إلى الوقت الحاضر .

قصور واد مزاب تعانق المسجد العتيق

انتقلنا في اليوم الموالي إلى مقر الولاية غرداية و بالضبط إلى قصور واد مزاب الخمسة التي تشمل العطف في القرن التاسع و ميليكا القرن العاشر، غرداية القرن الحادي عشر، بونورة القرن الثالث عشر، بني يزقن القرن الرابع عشر، إضافة إلى قصرين آخرين خارج واد مزاب و المتمثلين في "برايان" و" قرارة" الذين تم إنشاءهما في القرن السابع عشر ميلادي. القصور التي كانت تحت رعاية المجلس الموحد الميزابي، الذي يوحد بين كل العقائد و التقاليد و الدين الذي شمل جميع رؤساء القصور السالفة الذكر . الشيء الذي يشد انتباه الزائر الهيكل المعماري لهذه القصور التي بنيت على أساس المسجد الذي يرمز إلى الدين، حتى عند وجودنا هناك حرصنا على إتباع عادات أهل منطقة " بني مزاب" أين وجدت صعوبات كثيرة في الانتقال بين طرقات القصور و هذا أمام الحرمة التي تميز أهالي القصر إذ انه كان من الممنوع عليا أن أسير بكل حرية و اندفاع، فقد أكد لي المرشد السياحي ناصر شريط الذي رافقنا في ولاية غرداية على ضرورة ترك الطريق أمام الماريين الذين لاحظتهم فيهم ميزة غير موجودة في العاصمة، فالرجل المزابي القاطن في هذه القصور إذا مر على فتاة فانه من المستحيل أن يرفع عينيه إليها بل يبسط وجهه إلى الأسفل و يسير بسرعة البرق.حتى المرأة تجدها ترتدي لباس واحد لا يظهر فيها إلا عين واحدة ، حتى انك لا تجد الأشخاص يتبادلون أطراف الحديث في أزقة القصور .بالمحادة من تلك القصور تجد السوق التي تبعد عنه ببعض الأمتار. كانت الساعة تشير إلى الثانية زوالا عند وصولنا إليه وجدنا اغلب المحالات مغلقة و عند سألنا عن السبب اخبرنا احد السكان أن السوق سيفتح مباشرة بعد صلاة العصر. اصرينا على البقاء إلى غاية نهاية الصلاة، لتفقد بعض المحالات، جلسنا في ساحة السوق التي كانت شبه خالية ننتظر، و قد تبادلنا أطراف الحديث مع أعضاء الوفد الذين استفدنا كثيرا من بعض الشباب المثقف على غرار حكيم و موسى و محمد الذين ينتمون إلى جمعية مختصة في السمعي البصري و حتى طلاب الآثار الذين افادون كثيرا على غرار نبيلة و كريمة و حتى ياسين، تنقضي الوقت بسرعة حتى لمحنا خروج المصلين من المساجد،وهنا بدأت تفتح جميع المحالات التي وجدنا فيها مختلف أنواع المنتوجات و قد استغلنا الفرصة لشراء التمور و بعض الهدايا التي ترمز إلى الولاية . أما اليوم الأخير من الرحلة فقد خصص إلى حمام زلفانة، أين وجدنا أن الأخير يقصده جميع المواطنين القادمين من جميع أرجاء التراب الوطني قصد التداوي بمياهه المعدنية التي تشفي العديد من الأمراض .

نوافذ

- **المتحف العمومي بالمنيعة يحوي على أحجار المستنقعات التي تعود إلى العصر الطباشيري و التي يفوق عمرها 120 مليون سنة.**
- **القصر القديم العتيق يعاني من تدهور خطير يتطلب تدخل الجهات المعنية لإعادة الاعتبار لهذه الجوهرة المعمارية.**
- **قصور بني مزاب ترمي بضلال المحافظة والتقاليد على أحياء المدينة العتيقة .**
- **حمام زلفانة الطبيعي وجهة العديد من المرضى لتداوي بمياهه المعدنية الطبيعية .**